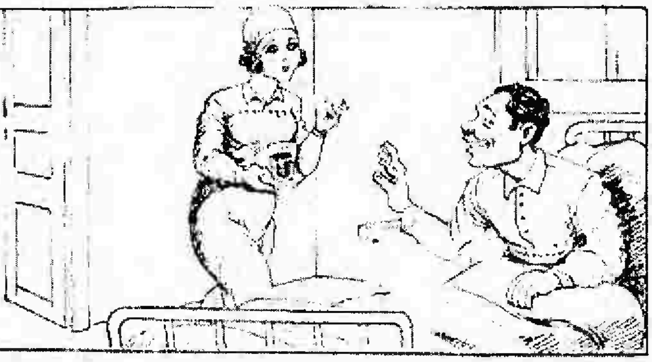

المريض

بقلم الأستاذ ابراهيم عبد القادر المازني

جلس سالم فى (الأمريكين) مطرقاً ينظر إلى كعب حذائه الذى صقله له الرجل منذ دقائق ، وكان يحركه كأنما يريد أن يحفر حفرة فى الأرض الصلبة . وكان كرسيه قريباً من رصيف الشارع ، وكان غاصاً بالغاديات والرائحات من كل فاتنة ممشوقة القوام ، ولكن عينه لم تكن إليهن بل إلى الأرض وكان فى الحقيقة يديرها فى نفسه ، ويتساءل : « لماذا خلت حياتى الى الآن من المرأة ؟ » ولا يهتدى الى جواب لسؤاله ، فقد كان فى السابعة والعشرين من عمره ، وكان ماله كثيراً ، ولا عمل له إلا إنفاق هذا المال — إن صح أن هذا عمل — وكان يحس أنه ليس حيا بالمعنى الصحيح ، وينكر من نفسه انقباضه عن الخلق ، وحياءه وخجله من المرأة . وتذكر ، وهو جالس يراجع نفسه ويتهمها بالضعف وعدم الصلاح للحياة ، أنه حاول مرة أن يتعلم الرقص وكانت معلمته رشيقة خفيفة فاستقبلته أول يوم بالابتسام والترحيب ، وعلمته خطوات ، وكان يحسها لينة مؤاتية ، ولكنه لم يحمل باله الى ذلك ، وإن لم يفته الشعور به ، بل أقبل على الدرس جاداً كأنما الدنيا ليس فيها غير قدميه ، فما أضيق رقعتها ! فلما كان الدرس الثانى ، دار معها دورات لاحظ أنها انقلبت جامدة ، وأنها صارت كأنها نائمة ، فقد كانت تتثاءب بالفعل ! فعجب أين ذهب لينها ؟ وكيف جف وتصلب جسمها الذى كان بالأمس رخصاً ؟ وجاوز الأمر التثاؤب الى التعبيس فأحس أنه ثقيل على نفسها ، فكف عن الدرس ، وراح يسأل نفسه : « كيف حدث هذا ؟ . لقد كانت أول يوم خفيفة مرحة ، وكان فيها لين ومرونة ، وكان الجمال يضحك بوجهها ، ويضيئه نوره ، فهل ترانى أذويتها وأخمدت هذا الضياء ؟ »

وضاق صدره ، وهو جالس ، ولم يحتمل كل هذا الجمال الذى يخايله ، فصفق وطلب كأساً من الويسكى ولم تكن الخمر مما يحب ، ولكنه خالف عادته ، لعل الخمر ترفع هذا الذى جثم على صدره ، وشرب الكأس بلا مزج ، صرفاً ، بغير تقطيب وطلب أخرى ألحقها بالأولى ، وثالثة شعشعها بالصودا ، فقد أحس أنه صار أخف وأقوى ، وأن الحجر الذى كان على قلبه قد انحط ، فقد صعد الشراب الى رأسه ، فرفع عينه وأجالها فى الفتيات السائرات وراح ينقدهن أيضاً : فهذه صدرها أعلى مما ينبغى لمن كان لها مثل عودها ، وتلك ممصوصة لا ثدى لها ولا خصر ولا ردف . وهذه الثالثة بديعة التكوين ، ولكن ينقصها أن تكون خطوط جسمها ألين ، والرابعة . . أوه ما شاء الله ! . . لقد تحسن النسل جداً فى هذا العصر ! . أين من هؤلاء أمهاتنا اللواتى كن يخرجن ملفوفات فى

الملاءات ، وكأنهن منها فى غرارات أو زكايب ؟ وقرت عينه بهذه المناظر وزايله الشعور بالكمد والحرمان ، وآنس من نفسه قوة وجرأة لا عهد له بهما ، وكانت هذه نشوة ، ولكنه لم يكن يعرف ذلك أو يفطن إليه ، وكان الشراب قد أدار رأسه ، فنهض يتمشى ووضع طربوشه على رأسه بغير احتفال ، وكان الزر الى الأمام ، وكان ربما أطرق وهو سائر على عادته ، ولكنه فى هذا المساء استطاع أن يرفع رأسه ، وكان حين يفعل ذلك فجأة يلمح الزر فيضحك ويضربه بأصبعه فيدور ثم يستقر بعض خيوطه فوق الطربوش والباقى يتدلى على مستداره فيضحك كرة أخرى ويهز رأسه مسروراً ، ثم يروح يغنى ، لا بشعر أو نحوه ، بل ببعض ما يدور فى نفسه من الخواطر ؛ وكان تلحينه مبتكراً لا تشوبه شائبة من التقليد ، وكان فى الواقع أشبه بمن يغنى نفسه فى الحمام ليتسلى ، ولم يكن يحس أن فى الدنيا ناساً يروحون ويجيئون ويستغربون حاله وينظرون إليه ويبتسمون أو يقطبون . وكان هو يصيح — وفى ظنه أنه يهمس — كل بنت تُحِبّ أن تُحَبّ . . يا سلام ! . . تمام ! . . لن تأكلنى امرأة . . أبداً ! »

وأجال عينه وهو يتبسم راضياً عن نفسه وعن الدنيا التى حلت فجأة فى عينه ، فوقعت على فتاة أيقن حين رآها أنها أجمل من خلق الله . ولا شك أنه كان مبالغاً ، ولكن الحقيقة أنها كانت جميلة . وكانت وسطاً لا بالطويلة ولا بالقصيرة ، وغضة هيفاء لا هزيلة معروقة ، ولا بدينة يلح عليها اللحم ، وسمراء ولكن شعرها ناعم وحف ، وذهبي مرسل لا يبدو أن شيئاً يمسكه من مشابك أو نحوها ، وكانت خطرتها رقصاً بلا تكلف ، ومشيتها انسياباً ،

وأدهش سالماً أن الفتاة نظرت إليه كما نظر إليها ، وأنها لم يسؤها تحديقه فى وجهها ، بل ابتسمت هى أيضاً ، وتأملته كأنما تفحصه أو تعجمه بعينيها ثم انصرفت عنه ومضت فى سبيلها ولم تلتفت بعد ذلك وراءها أبداً . وكان عهده بالفتيات أنهن لا ينظرن إليه ، ولا يقمن له وزنا . وقد تلتقى عينه بعين إحداهن اتفاقا ، لا عن عمد منه ، فما كان يجرؤ على ذلك ، فتحول وجها كأنما رأت ما تكره فكان يعجب ويسأل نفسه : « ماذا يا ترى يبغضنى إليهن ؟ أأنا دميم ؟ فانى أرى أشد الناس دمامة تعشقهم فتيات صبيحات الوجوه مدهشات ! أم أنا ثقيل الظل ؟ ولكنى لا أقول ولا أفعل شيئاً . فماذا يرين من ثقل ظلى إن كان ثقيلا ؟ (ويعز عليه أن يقر على نفسه بثقل الدم فيقول) أظن أنه ينقصنى شىء . . . ولكن ما هو ؟ (ولا يهتدى إلى النقص فيقصر يائساً)

ولم يخطر بباله هذا المساء أن به نقصاً ، أو أن ظله ثقيل ، أو أنه دميم ، فقد صرفه عن ذلك ما شرب على خلاف عادته . وكانت ابتسامة الفتاة حسبه مطيراً لكل هذه الخواطر الثقيلة من رأسه ، فزرر الجاكتة ومضى وراءها يريد أن يدركها ، وكانت أسرع منه ، ولكنه عوض ذلك بقوة الارادة ، وصحة العزم ، وإذا بها تقف أمام مدخل عمارة ضخمة عالية ، على الجدار إلى جانب بابها الواسع لوحات كثيرة فقال وهو يبهج : « سعيدة » فنظرت إليه ملياً ، وحدثت نفسها أنه السكران الذى كان يغنى فى الشارع ، وخطر لها أن تتقى إسخاطه فقالت : « سعيدة » وكانت السكرة قد راحت ... طارت فى الهواء .. ولم يبق فى رأسه إلا الرغبة فى معرفة هذه الفتاة الجميلة بأى ثمن ،

فتظاهر بأن يتأمل اللوحات الكثيرة وقال : «أظن أن عيادة الدكتور جميل هنا ؟ » وأشار إلى اللوحة التي تحمل هـذا الاسم . فابتسمت وسرها أنه يتكلف البحث عن اسم طبيب ليخلق موضوعا للكلام ، وخيل إليها أنه ليس بسكران كما توهمته ؛ واعترفت أنه وسيم مليح القسمات فقالت : « ربما .. من يدرى ؟ » فقال : « إذا لم يكن .. أى هؤلاء أحسن ؟ هل لك أن تشيرى على ؟ » ولم يكن يريد أن يقول ذلك ولكنه قاله بلا تفكير ، فلم يسعها إلا أن تضحك ثم قالت : « هل أنت واثق أنك تريد أن تدخل عيادة طبيب ؟ » فقال : « بالطبع . إنى مريض جداً .. لا أدرى كيف عشت الى الآن .. كيف أمكن أن أعيش » وأحس وهو يقول ذلك أنه ليس خير ما يقال لفتاة جميلة يرجو أن يستميلها إليه . وما ذا تصنع فتاة بمستشفى متحرك ؟ ولكن السيف سبق العذل . وسمعها تقول — كأنما كانت تقرأ خواطره — « مسكين ! ألا يحسن أن تذهب الى مستشفى ؟ » فقال بسرعة ، فما كان يعنيه إلا الكلام والسلام : « والله فكرة ... هل تعرفين مستشفى ؟ » ولم ينتظر جوابها بل اندفع يقول : « اسمى . من أنت ؟ . من عسى تكونين بغض النظر عن كونك أجمل فتاة على ظهر الكرة الأرضية ؟ » فحملقت فى وجهه ، وقد أدهشتها جرأته ، ولكن لهجة الجد والاخلاص لم تقتها ، ومنعتها أن تغضب ، وأقنعتها أنه يقول ما يعتقد فابتسمت واكتفت بأن تقول : « اسمح لى ... » ودخلت العمارة وتركته واقفاً ، فتردد وعاوده الحياء القديم الذى أفسد عليه حياته ، فقد كان ذهابها ، هكذا فجأة ، صدمة كادت تضيع تشجيع الابتسامة التى أجرته وراءها ، ولكن بقية من الكؤوس التى احتساها قوّت ضعفه . وتبدّت جنانه نزعة من أن يكون هذا آخر العهد بها ، فلحق بها كالمجنون ، وإذا بها تدخل عيادة الدكتور جميل . . . ولم يكن قد عنى بأن يعرف أى طبيب هو ، ولكن ما قيمة هذا ؟ . . وجلس فى غرفة أشار إليها الخادم ؛ وكانت غاصة بالخلق فتشهد لأن هذا خليق أن يتيح له أن يطيل المكث حتى يرى الفتاة مرة أخرى أو تسنح فرصة لـ . . . من يدرى ؟ . ثم نهض وراح يتمشى فى الردهة ، فقد كان يحس أن السكون شاق ، وخرج الخادم فى تلك اللحظة من غرفة السيدات ، فأومأ إليه وناوله عشرة قروش وشرع يلقى عليه سؤالاً بعد سؤال ، لا عن الدكتور فما كان يعبأ به شيئاً ، بل عن العمارة وملاك من هى وأجرة الشقة فيها ، كأنما كان ينوى أن يشتريها ، ثم وثب فجأة وبلا مناسبة إلى السؤال عن الفتاة التى جاء وراءها ، ولم يتعذر على الخادم أن يعرفها لأن سالماً وصفها وصفاً دقيقاً وإن كان لم يخل من المبالغة ، ثم لأنها كانت آخر من دخل قبله ، فما راعه إلا قول الخادم : « آه الريسة خديجة ؟ » فدهش سالم وسأله : « عمن تتكلم ؟ » قال الخادم : « عن الريسة خديجة ؟ » فسأله سالم : « مالها ؟ » فقال الخادم : « ألم تكن تسأل عنها ؟ » فقال باستغراب : « هل سألتك عنها ؟ » قال : « آه ! هذه هى خارجة » وكان هذا صحيحاً ، فهمّ بأن يتبعها ، ولكنه أحجم فقد صار حسبه أن الخادم يعرف من هى ، ثم سأله : « هل قلت الريسة ؟ الريسة أين ؟ » قال : « فى مستشفى الدكتور » فسأله : « هل للدكتور مستشفى خصوصى ؟ » قال الخادم : « طبعاً أحسن مستشفى » فسأله : « ماذا يعالجون فيه ؟ » قال : « كل الأمراض » وهم بأن

يسردها ، ولكن سالماً قطع عليه الكلام بأن دس في يده عشرة قروش أخرى وقال — أو صاح — « هـذا أحسن طبيب وأنا أسعد الناس » فقال الخادم : « الله يشفيك يا بك ! »

***

وجاء دور سالم فدخل على الدكتور جميل ، وكان طويلاً مديد القامة ، وشاباً ولكنه يؤثر أن يترك عثنونه ليزيد وقع علمه وفضل طبه بوقار الشيخوخة المستعار

وسأله الدكتور : « مالك ؟ »

فابتسم سالم وفرك كفيه ، وراح يصف الأمراض التي يسمع بها ولا يعرفها ، ويزعم أنه مصاب بها جميعاً وفي وقت معاً . وكان الدكتور يصغي إلى وصف حالته وآلامه فيقطب ، ثم يزداد تقطيباً ، حتى صار جبينه كالحصير ، ولما فرغ سالم من الوصف نهض الدكتور وزام وهو يتمشى وقال « ارقد هنا »

وفحصه بعناية وجهل وهو ينقر على بطنه ويتحسس أمعاءه ويضغط هنا وهناك ويزوم ويهز رأسه آسفاً ، وسالم يرى ذلك فيخفق قلبه طرباً ، ثم قال الدكتور : « البس ثيابك ... واسمع ... »

فأقبل عليه سالم بوجهه وقال : « نعم نعم ؟ »

فقال الدكتور : « إني آسف ... مرضك صعب ويحتاج إلى عناية شديدة ووقت طويل ... والنتيجة (وهز كتفيه) لا أدري ... قد تشفى أو لا تشفى ... »

فسر سالم جداً وقال بلهفة : «ألا ترى يادكتور أنه يحسن أن أدخل المستشفى لينتظم العلاج ويؤمن الخلط ؟ »

فقال الدكتور : « بالطبع المستشفى أحسن وأضمن ، ولكن المسألة متعلقة بك »

فكاد سالم يرقص من الفرح وقال : « هل أستطيع أن أدخل الليلة ؟ »

فسأله الدكتور بدهشة : « الليلة ؟ ولم هذه العجلة ؟ »

فقال سالم : « خير البر عاجله ... شيء لا بد منه لماذا نؤخره ؟ إني أكره التلكؤ والبلادة والتردد ... نعم الليلة »

قال الدكتور وهو يتأمله : « حسن ، سأرى . إنك أغرب مريض رأيته ... لا يبدو عليك أقل إدراك لخطورة حالتك »

قال : « بالعكس ... أنا واثق أنها خطرة جداً وأنها ستكون أخطر إذا بقيت خارج المستشفى دقيقة واحدة »

قال الدكتور : « كما تحب »

وتناول التليفون

***

كانت مصحة الدكتور جميل بك في حي هادئ تحيط به البساتين ، وكان النظام فيها دقيقا والعناية شديدة بالمرضى ، وكان فيها درجتان اثنتان ليس الا ، فليس للفقير فيها محل ، ولا نحتاج ان نقول ان سالما آثر أن ينزل في الدرجة الأولى ، لا حباً في الوجاهة أو الفخفخة ، وان كان ماله كثيرا ، بل لأنه أراد أن يكون أقرب الى الرئيسة خديجة وأدنى وسيلة اليها . وكان رأى الدكتور جميل فيه قد سبقه الى المصحة ، فعلم كل من فيها أن مريضا مدنفا قد يصبح هامةً يوم من الأيام في شهر من الشهور المقبلة قادم ليقيم في المصحة ويراقب ويعالج ما أمكن العلاج ،

فلما رأوه يدب على الأرض وهو داخل كأنما هو ذاهب الى مرقص ، ويصفر وهو يمشي ، ويدير العصا بين أصابعه ، دهشوا وبهتوا وخيل إليهم أن فى الأمر خطأ أو أن هزّالا زعم أنه هو المريض وجاء بدلاً منه . وفركوا عيونهم التي لم يصدقوها وأحاطوا به — رجالاً ونساء — وراحوا يصعدون عيونهم الى وجهه ويصوبونها الى قدميه ، ثم ينظر بعضهم الى بعض مستغربا وأفواههم مفتوحه من فرط الدهشة ... أهذا هو المريض الذى يخشى على حياته من الفساد الذى فى معدته وأمعائه ؟ ... الفساد الذى لا يكاد يكون له علاج ؟ ... أهذا هو الذى يدير عينه فيهم كأنما يفتقد شيئاً لا يراه ولا يدرى أين يلتمسه ؟ ... لو كانت الظاهر تصدق لكان هذا خليقا أن يكون ملاكا ! فالحق أن الدكتور جميل بك آية من آيات الله ! ... كيف عرف ياترى داءه الدفين الذى لا يشي به مظهره الخداع ؟ ؟

وسألهم سالم ، وهم حافون به فى غرفته : « قولوا لى ... هل أنتم كل من هنا ؟ »

قالوا : « نعم »

قال : « إذن هناك خطأ ... أين الريسة ؟ »

وكاد يقول : « خديجة » ولكنه آثر أن يكبح نفسه

فتقدمت احدى الفتيات فنظر إليها معبساً وقال : « أنت ؟ هل أنت الريسة ؟ » ثم خطر له خاطر فأضاف : « الريسة الوحيدة ؟ »

قالت : « لا ... هذه ليلى ... »

قال : « آه ... بالطبع ... أين التليفون ... اطلبوا لى الدكتور حالا »

فظنوا أنه يعانى ألما باطنا يتشدد ويتجلد ليكتمه فخرج ثلاثة أو أربعة منهم ، يعدون ، وبقيت الريسة فقال لها : « إسمعى ... متى تكون الريسة خديجة هنا ؟ »

قالت : « غدا صباحا ... لماذا ؟ . هل تعرفها ؟ »

قال : « لن أعرف أحـدا إذا لم أعرفها ... أخبريها أنى أريد أن أكلمها قبل أن تغير ثيابها ... مفهوم ؟ »

فحدثت الريسة نفسها أن مريضا مثله مشفيا على التلف جدير بأن يجاب الى رجاء كهذا لا ضير منه ، وفى هذه اللحظة جاء من يدعوه الى التليفون فذهب وتناول السماعة وقال :

« إسمع يا دكتور من فضلك ... إنى لا أحب أن أرى حولى ناساً وجوههم بيضاء ... السمرة هى اللون الذى أحبه ولا أطيق سواه ، فاذا لم يكن عندك ممرضة أو ... أو ... أو ... ريسة سمراء فانى أخرج الآن ... لا يمكن أن أبقى ... لا فائدة من أى علاج . . »

فقال الدكتور : « أوه لا تخف ... اطمئن ... سنجد لك ممرضة سمراء ... انهن كثيرات »

فصاح فى التليفون : « لا لا لا لا . ليست كل سمراء صالحة . . . سمراء واحدة هى التى يمكن أن أطمئن إليها وأرضى أن أضع نفسى بين يديها »

فسأله الدكتور : « من هى ؟ »

قال : « لا أدرى . . لقد رأيتها فى منامى . . وأحلامى كلها صادقة . . لا يكذب واحد منها . . ومتى رأيتها عرفتها . . فاذا لم تكن هى التى بدت لى فى حلمى ، فانى أبقى دقيقة واحدة هنا . . وهذا شرط لا سبيل إلى النزول عنه »

قال الدكتور ملاطفاً : « سنرى غداً . . انتق من شئت ممن عندنا من السمراوات »

قال : « وتكون لى خاصة . . لا تعنى بأحد سواى . . وأؤدى أنا نفقاتها . . مفهوم ؟ »

فقال الدكتور : « لا بأس . لا بأس . مسألة بسيطة . ولكن يجب ألا تقلق نفسك أو تزعجها بأمر كهذا . . . سنفعل كل ما يمكننا لنكفل لك الراحة ؛ والآن اذهب ونم »

فنام مطمئناً . . .

وفى الصباح جاءت التى أدخلته المصحة ، ووقفت أمامه تبتسم له ، وعليها ثوب أبيض قصير الكمين ، فحدث نفسه بنعمة الله عليه ، وقالت له وهى تدير عينيه فى الغرفة : « إن ثيابك لا تزال فى الحقيبة » ومضت إليها تخرجها وترصها فى الخزانة فقال : « أوه . . لا تتعبى نفسك فانى أستطيع أن أرتبها » فقالت : « ولكن هذا واجبى . إنى أفعل ذلك لكل مريض أكون عنده أو أحضر دخوله »

فصاح بها : « إذن يجب أن تكفى عن هذا . مريض واحد هو الذى يجب أن تقصرى عنايتك عليه . هذا كان اتفاقى مع الدكتور الذى قال إنه ليس فى مصر كلها إلا فتاة واحدة يأتمنها علىّ »

فسرت الفتاة وقالت : « هل قال هذا حقيقة ؟ إذن سأتولى أمرك بالنهار ؟ » فقال : « بالنهار وبالليل » ؛ فنظرت اليه وانحنت على الحقيبة لتخرج منها الثياب وترصها فى الخزانة ، وقالت وهى تفعل ذلك : « إن ذوقك جميل . . . هذه المنامات (البيجامات) بديعة » فسره هذا وحدث نفسه أن البداية طيبة وقالت : « والآن سأخرج وأجىء باللبن » فوجم وطال وجهه ، لسببين : أحدهما أنها خرجت فركد الجو حوله ، والثانى أنها ستجيئه باللبن وليس أبغض اليه منه ؛ على أن غيابها لم يطل ، فقد رجعت بعد قليل وفى يدها كوب وقالت :

« اشرب هذا » فالتفت اليها وقال : « اسمعى . هل هذا اللبن ضرورى ؟ » قالت . « بالطبع . إنه غذاؤك الذى أشار به الدكتور » فقال : « لا بأس ! من يدك أتقبل أى شىء » ورد اليها الكوب فارغاً فهمت بالخروج فقال : « إلى أين ؟ » قالت : « سيجىء الدكتور بعد قليل فاستعد للقائه » ، فسألها : « وما الداعى لحضوره ؟ . . ألست قد دخلت المصحة وانتهى الأمر ؟ » فضحكت وقالت : « سيعيد فحصك »

وجاء الدكتور كما قالت — بعد قليل — وأعاد الفحص وأتبعه به ، وآمله أيضاً ، ثم اعتدل بعد طول الانحناء عليه وقال : « خديجة . لا شىء إلا اللبن » ففزع سالم وقال : « ولكنى قلت إنى أمقته ؟ » فقال الدكتور وهو لا ينظر إليه : « لا شىء إلا اللبن » وخرج

فدنت منه وكان قد أغمض عينيه ، يائساً ، وراح يسأل نفسه : « كيف يمكن أن يعيش على اللبن وحده ؟ . . إن هذا سينتهى به إلى ما يتوهم الدكتور أنه مصاب به ولا شك » وأحس خديجة تلمس يده ففتح عينيه مسروراً فألفاها تجس نبضه وسمعها تقول : « تعبان ؟ » قال : « ميت » قالت : « مسكين . . هل تحس ألماً ؟ » قال : « كلا . إنما أحس أن دمائى تغنى فى عروقى . . خلى يدك على يدى » قالت : « هذا من أعراض المرض . . تعترى المرء نوبات من النشوة ... »

فقال : « اسمعى ... أليس عندكم شىء من الويسكى »

فصاحت به : « إيه ؟ »

قال : « ويسكى ... جون هيج ... بالصودا »

قالت : « إنك أغرب مريض رأيته فى

حياتى ! . . ألا تعلم أن هذا يقتلك ؟ »

قال : « ألم يقل لك الدكتور إنى ميت لامحالة ؟ فماذا يهم ؟ سيان أن أموت بالويسكى أو باللبن ... بالويسكى أحسن ... وألذ أيضاً »

قالت : « يخيل إلى أنك مزيف ! »

قال : « سلى الدكتور ... صدقيه إذا كنت لا تصدقيني »

قالت : « لقد أمرنى أن أدلك لك معدتك »

قال : « بالطبع ... هذه هى ... إنه دكتور حكيم ... »

* * *

ولو أن غذاءه ظل مقصوراً على اللبن لمات كما قال لنفسه ، وهو يشرب الكوب الأول منه ، ولكن خادمه كان يجيئه — سراً — بما يشتهى فيأكله خلسة . فاتفق يوماً أن دخل عليه الخادم بفطير وكان قد غاب يومين فتصور سالم ، فلما رآه مقبلاً صاح به : « أين كنت كل هذا الدهر ؟ . إنى أموت جوعاً هنا » قال : « يا سيدى لا تؤاخذنى ... لقد جئت يومين ولكنهم كانوا يفتشوننى ويأخذون ما معى . . غير أنى استطعت اليوم أن أغافلهم وقد خبأت هذه الفطيرة . . »

فتناولها سالم بسرعة ومال عليها بفمه فملأه بقضمة كبيرة منها ، وأراد أن يقول له اغلق الباب ، ولكن فمه كان محشواً فعجز واكتفى بالاشارة إليه ، وعرف الخادم المراد فوقف وراء الباب وأسند ظهره إليه لأنه لم يجد مفتاحاً . وأقبل سالم على الفطيرة يلتهمها بأسرع مما كان يتوهم أن فى قدرته أن يصنع ، ولم يكد يفرغ حتى سمع نقراً خفيفاً جعل يقوى . لقد كان يشير للخادم ألا يفتح ريثما يمسح فمه ويعفى على آثار الفطير . ثم دخلت خديجة وقالت :

« ما معنى هذا ؟ . هل كنت تصنع شيئاً مخالفاً للأوامر ؟ » فقال بابتسام — فقد ارتاح لما أكل وأحس بالامتلاء — « وماذا أستطيع أن أصنع هنا غير ما ينبغى ؟ » فقالت : « إنه يبدو عليك أنك خالفت الأوامر » قال : « أبداً . كل ما حدث أن حسن هذا جاءنى بخبر سار جداً . . فأنا لهذا منشرح الصدر ... اسمع يا حسن ... هات لى كل يوم خبراً ساراً ... إن خير علاج هو الأخبار السارة ... أليس كذلك ؟ »

فأحست خديجة أنها غلبت فسكتت وأقبلت على السرير ترتبه وقالت وهى تفعل ذلك : إن الدكتور آت . ولم تكد تفرغ حتى دخل وأوسعه جساً وضغطاً وتنقيراً حتى كاد يجن ، وقال وهو يفعل ذلك : إنه يظن أن فى المعدة شيئاً غريباً ، فأدرك سالم أنها الفطيرة وكاد يضحك لولا ما هو فيه من الهم . ثم قال الدكتور : « لقد رأيت إبدال اللبن بعصير البرتقال ليس إلا . . . ولست أرى داعياً لاجراء عملية . . وسأرى ما يكون . . »

وظل ثلاثة أيام يشرب عصير البرتقال ولا يصل إلى شىء سواه ، لأن الخادم عجز عن تهريب أى شىء ، فضعف وقلت حركته وبدا عليه الهزال ، وساء خلقه أيضا ، مع غير خديجة بالطبع ، كما لا نحتاج أن نقول . وكانت أخبار شراسته مع الممرضات وغيرهن تبلغ الدكتور جميل ، فيزداد اقتناعاً بأن هذه الحالة العصبية التى تغرى بالاعتداء باللفظ أو اليد مما يؤيد صحة التشخيص ويستوجب زيادة العناية والتدقيق . وكان العزاء الوحيد الذى يساعد سالماً على الاحتمال والصبر ، هو وجود خديجة إلى جانبه أكثر الوقت وقد استطاع بالعنف مع سواها ، وبالمال الذى يبذله المصحة ولمن فيها

أن يحتكرها لنفسه ، وأعانه على ذلك أن الدكتور جميل يعطف عليه ويرثى له ، ولكن الخادم قلق وأشفق على سيده ، وكان قد رباه وحمله صغيراً وظل معه بعد وفاة أبويه ، فلم يسعه إلا أن يفضى بوساوسه وهواجسه إلى عمه — عم سالم — وإن كان سيده قد أمره ألا يخبر أحداً أنه دخل مصحة . فجاء العم وزار ابن أخيه ، وألح عليه أن يفضى إليه بالحقيقة وأن يطمئن قلبه ، فقال له سالم إنه بخير ، ولا خوف عليه ، وأن كل ما فى الأمر أنه « مريض جداً » !! فضحك العم ، وكان ظريفاً كيساً ؛ وقال لابن أخيه ، إذن قم والبس ثيابك

واتفق أن خديجة كانت فى ذلك الوقت تهم بالدخول ، فلما رأت هذا الزائر وقفت ونظرت منه الى مريضها ، وحدق فيها العم والتفت الى ابن أخيه وسأله :

« أهى هذه ؟ »

فهز سالم رأسه أن نعم

فقال العم : « إنك معذور ... »

وكانت خديجة تسمع هذا الحوار وتتعجب ، ولا تفهم شيئاً ، فأشار إليها سالم أن تدنو وأن تجلس على السرير ، فترددت ، فألح ، فأطاعت ، فقال لها :

« هذا عمى . إنه كما ترين ، لا يخيف ... وهو يدعونى الى الخروج من هنا ، والعود إلى البيت ، وأنا أصر على البقاء ، لأن حياتى هنا أملأ وأمتع .. إلا إذا قبلت أن تذهبى معى إلى البيت »

فقالت : « ما ذا تقول ؟ لست فاهمة »

فقال العم : « يا ستى هذا مريض مزيف .. متمارض من أجلك »

فنظرت إليهما كالمذهولة ، وتذكرت أن سلوك سالم لم يكن سلوك مريض مدنف مشف على الهلاك وسرها فى قرارة نفسها أنه تمارض من فرط حبه لها وأنه إنما أراد أن يكون قريباً منها ، واشتهت أن تسمع هذا منه هو ، لا من عمه فقط

ولم يخيب سالم أملها فقال : « صحيح وسأقص عليك القصة . . . شاب خجول لا يستطيع أن يكلم فتاة ، فاذا حاول أن يكلمها وقف لسانه فى حلقه ، وماله كثير ولكن ما خير المال وحده ؟ فاتفق يوماً أنه شرب كاسات من الويسكى صرفاً ، ورأى بعد ذلك أجمل فتاة فى الدنيا ، ونظرت إليه الفتاة فابتسمت ، وكانت هى الوحيدة التى رأت وجهه وابتسمت ، فجرى وراءها ، ولم يكن مريضاً ولكنه اضطر أن يخترع لنفسه مرضا يسوغ به اقتحامه عيادة طبيب ، فاخترع واخترع حتى طار عقل الطبيب المسكين ، وقد أحب هذه الفتاة حب عبادة ، وفى سبيلها صبر على اللبن الصرف واحتمل عصير البرتقال ... يا لها من تضحية ! ! وهو يحيا وحده ، بلا أنيس أو إلف ... وبيته موحش ، فهل تظنين أن الفتاة يمكن أن ترضى بهذا المجنون زوجاً لها ؟ »

وكان العم ينظر إليها معجباً ، ويبتسم لها مشجعاً ، فقالت وقد وقع من نفسها أن سالما عرض نفسه للهلاك من أجلها « ولكنى لست سوى ممرضة ... لست كفؤاً لك »

فقال وهو يضع ذراعه على خصرها : « ستظلين ممرضة ... فقد أصابنى فى طفولتى أ ... أ ... »

فضحكت ونهضت عن السرير وقالت : « كفى اختراعاً ... »

وخرج الثلاثة ، بعد قليل ، معا ...

ابراهيم عبد القادر المازنى